يدخل الرمز ضمن معادلة البناء المثلثة الابعاد التي استطاع بها درويش تجاوز تأملاته الشـــعرية السابقة « ... لاني أضعت الحرب ، الســلام لا يولد الا من نهاية الحرب . ولا يسكن الحالة الواقفة بين حربين ، رجل اضاع سلاما ، ماذا يفعل ؟ والحرب هاجرت . او وضعت في زنزانة يحرسها الخصمان ، يحرسها الخصمان ... ماذا نفعل ؟ » .

في المسيرة الطويلة من الانتظار الى الفرح ، يكتشف سرحان ان الانتظار ينتظره مرة ثانية في نهاية الرحلة . لذلك يرتفع الصراخ الخافت والتمزق الطويل النفس . ولذلك ايضا يتوتر الشكل ، حتى نكتشف تداعيه الى حوار فقط او الى محاولـة جديدة للاقتراب مرة ثانية من التحليل ، او التعليق على الافكار الشائعة . هنا يلجأ درويش الى اللغة المباشرة نسبيا ليؤكد القناعات المبدئية التي من دونها لا معنى للكتابة . « الذهاب الى فلسطين ثورة وحلم امة . والهروب الى فلسطين تجريد وذريعة . فلسطين ليست جغرافيا فحسب ، انها عافية تاريخ ، وحيوية ثورة ، ومحالفة مستقبل . والهروب الى فلسطين استعادة ذكريات وبكائيات عاطلة عن الفعل » .

شكوى الشهيد الفصيح

حين تستكمل الدائرة جميع عناصرها ، يقف الشهيد وحيدا ليشكو ويشهد . من دون هـــذه الشهادة لا تتوحد العناصر . هنا تأتي الصرخة النهائية لتؤكد شدة الارتباط بالحلم وعمق هـذا الارتباط . والحلم لا يأتي عاريا ، يجيء مجبولا بعرق الفقراء الذين يتوج دمهم هامة الوطن «شعرنا بثلج الخجل يا سيدي الوطن ، ورضينا ان لا يكون لنا من نصيب فيك الا بيوت من طين ، وموت جميل لا يأتي ، ومجاعة دائمة » . هكذا تأتي الشكوى مجبولة بالحب . وتستطيع اللحظة التسـجيلية الاقتراب من شروط العلاقة الانسانية ، لتقيم داخل هذه الشروط اصواتا تحمل هموم المستقبل من داخل مشكلات الحاضر .

الدائرة الكاملة التي يقيمها درويش ، تعطي لكتابه « وداعا ايتها الحرب وداعا ايها السلام ». معنى **الشهادة** ، لانه يأتي من داخل الممارسـة النضالية في مرحلة محددة ، ليشهد على ولادة الاحلام وهي تمتزج بالدماء . ومعنى **المستقبل** الذي تشير اليه الكتابة من موقع الارتباط بالمكان ، عبر اكتشاف العلاقة الجديدة بين الزمان والمكان . حين يقتل المكان الزمن الصهيوني ، بينما يقـوم المكان نفسه باحياء الزمن العربي .

حول مسألة الشكل

لعل محمود درويش ، احد اكثر الشـــعراء والكتاب العرب ، ابتعادا عن مسألة الشكل . يأتيه الشكل عفوا او لنقل دون عناء شكلي خاص. هذا هو سبب ضآلة المسافة بين شكله ومضمونه . المسافة تبقى ، فهي ليست مسألة شاعر دون آخر انها مسألة اكثر عمومية وتعقيدا . لكنها هنا تضيق ، لان الرؤيا لا تزال قادرة على ان تتشكل داخل اصالة الصوت الشعري . واذا كان درويش بدأ في شعره الاخير اعارة مسألة الشكل اهتماما خاصا ، فانه هنا ، لا يزال داخل الشكل وخارجه في آن . من هنا تصبح قراءة نثره هذا عملية تسمح بالكشف عن مكونات التجربة عارية . وتصبـــح الكتابة نمط حياة ، تتقدم في البحث عن خصوصيتها داخل النهر وليس خارجه . تأتي تجربة الشكل هنا في عدم اكتمالها بالفة الخصوصية . انها حصيلة لحظة الفعالية استطاعت ان تمتد تحت لهـــب الصراع ، لتعطي النثر الشعري قدرة على التشكل ضمن خصوصية ، لا تسلب البنية الشعريـــة خصائصها ، بل تمدها بقدرة جديدة على الكشف والرؤيا .

هل يستكمل النثر تجربته ، ويقوم بالبحث عن شكله الخاص ، ضمن منطق البحث — التجاوز . أم لا نزال عند شاطىء الحلم ، والحلم يمتد كتاب يحمل الاحتمالات جميعها دفعة واحدة ؟ —

ليس الجواب فرديا . انه التجربة الفلسطينية الثورية ، التي تحفر في الحساسية العربية ، امتدادا جديدا ، ولا نزال أمام بداية التحولات .